تسليح الجيش السوري

كانت أسلحتنا شحيحة ولم يكن الغرب يبيعنا أسلحة، وذهب أخي صلاح في مهمة الى الصحراء الليبية للبحث عن الأسلحة التي خلفها جيش رومل من بين الألغام المزروعة، وكان هذا التنقيب يكلف ضحايا، ولهذا كنت من الدائبين على السعي للحصول على الأسلحة لجيشنا من المعسكر الاشتراكي. وفي أوائل عام 1955 حصلت على موافقة وزارة الدفاع لارسالي في مهمة الى أوروبا الشرقية لشراء أجهزة وآلات طبوغرافية لمصلحتي فكانت أول اتصال عربي تجاري رسمي مع المعسكر الاشتراكي ومقدمة لابرام اتفاقية شراء الأسلحة الشرقية التي أرعبت الغرب وخصوصا أميركا التي كانت تستعد لهجمة امبريالية على الشرق الأوسط بعد أن نجحت في ضرب حكم مصدق الوطني في ايران.ثم بدأت في حبك مؤامراتها على سوريا التي أدت الى قتل العقيد عدنان المالكي فكنت من قضاة قتلته. واتهمت بالشيوعية لأنني كنت أكتشف من خلال المؤامرات والمحاكمات دور أميركا في بسط نفوذها على المنطقة من خلال عملائها، فالوطني المتطرف بالنسبة لأميركا يقاومها حتما كإمبريالية، وبالتالي يلتقي مع الشيوعيين في معاداتها..

كانت الخمسينات حتى قيام الوحدة سنوات مقاومة صلبة من الجيش السوري الملتحم التحاما وثيقا مع الشعب ضد شراسة الهجمة الامبريالية الأميركية. سلحنا الشعب وكان أخي قائد المقاومة الشعبية بينما كنت أنا رئيس الأركان العامة وقائد القوات المسلحة. وقمت بتسليح ثوار الجزائر بكل الأسلحة الفرنسية التي عندنا حتى لا يقال بأنها أسلحة من مصدر اشتراكي، وبالتالي تتهم الثورة الوطنية ضد المستعمر الفرنسي بأنها بتحريض شيوعي.

كان عداء الحكومات العميلة يحاصرنا من كل الجهات. فتركيا تحشد جيوشها ضدنا في الشمال، والعراق الملكي التابع للانجليز يتآمر علينا، والسعودية تفسد ضباط جيشنا بالرشاوى والأموال، ومصر عبد الناصر التي لا تشعر بخطر الاستعمار الحديث وتحسب أن معركتها مع الاستعمار قد انتهت تخرب سرا جبهتنا القومية، هذا عدا اسرائيل وما تبيته لنا.

ان آخر صفقة أسلحة مع الاتحاد السوفياتي عام 1957 كانت بثلاثة مليار ليرة سورية (300 مليون جنيه استرليني). قابلت الملحق العسكري السوفياتي زاسورين قائلا:" نحن نبني السد الآن (سد الفرات) ولدينا مسؤوليات كثيرة تجاه شعبنا ونحمل عبئا كبيرا في الدفاع عن بلدنا، ولكن هذا لا يمنع التزامنا بدفع ثمن الأسلحة؛ وسوريا عندما تدافع عن استقلالها تبعد الأعداء عن حدود الاتحاد السوفياتي فمصلحتنا واحدة. ولذلك نطلب تقسيط هذه الديون لمدة طويلة لأننا بدفاعنا عن استقلالنا ندافع في الخطوط الأمامية الهجمة الامبريالية .

أجاب: "نحن نتمنى لو تقدم هذه الأسلحة هدية لسوريا لولا أن تفسيرها تجاه العالم من قبل المستعمرين يكون تفسيرا سيئا ومغرضا". واتفقنا على أن نبدأ الدفع بعد الانتهاء من بناء السد بفائدة رمزية زهيدة جدا ولأمد طويل غير مشروط .

عندما ذهب الوفد برئاسة خالد العظم للمفاوضة على شراء سلاح من تشيكوسلوفاكيا، طلبت منه أن يضيف عشرين مليون ليرة أسلحة لثورة الجزائر. كان الكولونيل عمران قد جاء عندي وقال: "ليتكم تكفلونا على عشرين مليون ليرة نشتري أسلحة لثورتنا في الجزائر من تشيكوسلوفاكيا" قلت له: "أليس عيبا؟ بلادكم تنهدم وأنتم تضعون دمكم على أكفكم وتقدمون مئات ألوف الضحايا ونحن نعطيكم سلاحا بالدين؟ سنعطيكم اياه بدون مقابل، فنحن سنشتري سلاحا بثلاثة مليار ليرة، عشرون مليونا لن تزيد في أعبائنا".. لم يصدق ما يسمع. طفرت الدمعة من عينيه..

اتصالنا بالسوفيات لشراء السلاح كان في أواخر عام 54 حضرت لاجتماع في برلين الشرقية. ستالين كان يمنع بيع الأسلحة لغير الدول الاشتراكية خوفا من أن تتوجه للاتحاد السوفياتي لأن العالم الثالث واقع تحت حكم رجعيات لها ارتباطات بالمستعمرين. قلت للملحق العسكري السوفياتي: "أتمنعون الأسلحة عنا مثل ما يفعل الغرب؟ نحن دولة وطنية مستقلة ونريد الحفاظ على استقلالنا. انني مسافر قريبا لأوروبا لشراء معدات من أجل المصلحة الجغرافية التي أقوم بتأسيسها، وسأمر على ألمانيا الشرقية لهذه الغاية، فلا تجعلونا متعلقين بالمستعمرين في الدفاع عن أنفسنا"؛ فسهل لي أن أجتمع مع ممثلين للحكومة السوفياتية حتى أشرح لهم الأمر.

عندما ذهبت الى ألمانيا الشرقية عملت أول صفقة في العالم العربي لشراء معدات طباعة للمصلحة الجغرافية العسكرية من بلد اشتراكي؛ وهناك جرت المقابلة التي هيأها لي الملحق العسكري مع مندوبين سوفيات شرحت لهم وضعنا وحاجتنا للأسلحة فوعدونا أن يغيروا سياستهم الملتزمين بها بعد وقت قصير.. وبعد بضعة أشهر كان ردهم ايجابيا.

عندما ذهب أمين النفوري في الوفد الذي عقد صفقة الأسلحة قال له جيكوف وزير الدفاع: "أي سلاح تطلبونه نحن مستعدون لاعطائه لكم دون شروط ودون دفع عاجل". استدعيت الملحق العسكري السوفياتي وقلت له: " لن ندفع لكم قبل مرور أربعة عشر عاما حين ننتهي من بناء السد." قال: "اننا نهبكم اياه دون مقابل لولا أن الأمر لا يبقى سرا ولا يهضم عالميا". أجبته: "نحن لا نأخذ من عرق عمالكم مجانا، والأسعار التي طلبتموها رمزية، ولكن لا نملك ما ندفعه لكم قبل أربعة عشر عاما حتى يعمل سد الفرات وتنتج المصانع التي ستبنونها لنا".

أجاب دون تردد: "نحن موافقون. كل ما تطلبونه نحن موافقون عليه".

قلت: " ليس لكم في هذا منة علينا، نحن مخفر أمامي ندافع عنكم كما ندافع عن أنفسنا من الهجمة الامبريالية"..